

وغطسة واستعلاء، في حين أنه أصلاً يشير إلى الانفراد والغلبة. في أساس البلاغة: (استبد بالرائى انفراد به)، وفي "تاج العروس" (استبد فلان به أى (تفرّد به دون غيره)، وفي لسان العرب (واستبد برأيه انفراد به). فإذا انتقلنا من الرأى والشخص إلى الأمر والفصل، فإن المعنى يتحرك إلى ما نسميه الآن: (حكم الفرد) أو (الحكم الشمولى)، ففى حديث على رضى الله عنه (أشار إليه ابن منظور وذكر نصه الزبيدي)... (كنا نرى أن لنا فى هذا الأمر حقا فاستبدتم به). ثم إنه كما يستبد الشخص بالأمر يستبد الأمر بالشخص (استبد الأمر بفلان إذا غلبه فلم يقدر على ضبطه)، حتى بدا كأن فى الاستبداد حزماً مطلوباً)... إذا عزم على أمر أمضاه ولم يثنه عنه شيء (أساس البلاغة).

يمكن أن نحدد منطلقاتنا فى الحديث عن الاستبداد على محاور عدة:

أولاً: تطور مراحل الاستبداد.

ثانياً: المسئولية المشتركة فى عملية الاستبداد.

ثالثاً: تجليات الاستبداد، وأخيراً: جدلية الاستبداد والاستضعاف.

تطور مراحل الاستبداد:

أن تستبد برأيك بدء ولادته حتى لو كان ذلك فى عمق اللاوعى، هذا أمر وارد، بل هو مطلوب، وإنكار ذلك مخالف للطبيعة البشرية، ومضيق لفرض الحوار الحقيقى، لا أحد يبدأ - داخل نفسه - إلا من موقع متفرد محدد جداً، وبذلك يمكنه أن يكون متيقناً من نقطة انطلاقه، مستبعداً غيرها، حتى إذا لم يكن هذا الموقف المحدد بادياً فى ظاهر الشعور، فإنه يظل حاضراً فى عمق الوعى، حتى لو تخفى وراء ظلاله من ميوعة الغموض وأدعاء قبول الآخر، وزعم الحرية دون شروط، فإذا ظهر هذا الموقف (المستبد) (المتفرد) على سطح الوعى، فهو الرأى البدئ القابل للحركة والجدل والتحرك والمواجهة، ذلك أنه بعد ذلك - بعد ظهوره - يصبح فى متناول وعى الآخر، كما يدخل اختبار واقع ملموس، فإذا استمر - برغم ذلك - كما هو بنفس التفرد والصلابة، لا يهتم برأى الآخر، ولا يتطور إلى ما يطوره من واقع الواقع، فهو الاستبداد بالرأى (وليس الاستبداد البدء) وهنا يمكن أن يوصف بالتعصب والعمى والتحيز والجمود .

فإذا كان صاحب هذا الرأى المستبد ذا سلطة محدودة (والد أو مدرس مثلاً (فقد انتقلنا إلى احتمال الاستبداد (بالأمر) (بالفعل) حين يفرض هذا الرأى - تنفيذاً - على غيره من الأضعف والأحوج. أما إذا كانت سلطته شاملة تمتلك أسلحة الإغارة على الوعى (الإعلام) وعلى الفعل (الاستغلال والاستعمال) فهو الاستبداد الشمولى، والدكتاتورية، وما إلى ذلك .

نحن لا يمكن أن ننكر أن في هذه النظم المسفأة استبدادية - خصوصا في بداية انطلاقها - ما يشير إلى إيجابية ما (لعلها تتوازى مع بعض ما لاحظناه من استقرار اللغة) لكن المصيبة الكبرى تتحقق من خلال آليتي (التمادي) و(التعميم). إن قائد مجموعة من الثوار حين يستبد برأيه في اجتماع سرى محدود أثناء فترة الإعداد، قد يكون على حق وهو يمارس اختراقات التردد ليتغلب على بليلة التخوفات، أو ميوعة الأغلبية، لكن هذا القائد نفسه حين يستبد برأيه بعد أن يتولى السلطة، ويملك ناصبة الفعل والفرض بشكل شامل، يصبح استبداده برأيه مجلبة لمصائب ليس لها علاقة لا بالثورة ولا بإيجابيات التفرد. هنا ننبيه إلى أن العيب ليس في فكرة الانفراد ذاتها، لكنه في الخلط بين الحاجة إلى بداية تحتاج إلى الحسم الجسور، وبين التمداد في فرض الرأي على الجميع من موقع السلطة:

المحور الثاني: المسئولية المشتركة

لا أحد يولد فرعوناً، حتى لو كان ابن فرعون، إن التفرعن ينشأ من الاحتياج إليه، ثم إنه يتمادى بفضل من يسمح به، ويذكره وينميه. يبدو أن هذا هو بعض ما نعى إلى وعى الشعب المصري وهو يطلق مثله الشهير (قالوا لفرعون إيش فرعنك، قال: ما لقيتش حد يردني).

من حيث المبدأ يكاد يستحيل تصور أن ظاهرة بهذا التعقيد، وهذا التمداد يمكن أن تظهر وتستمر إلا في مناخ يسمح بها، وأحيانا يباركها، المستبدُّ به يشارك في إرساء قواعد الاستبداد بالضعف، والاستسلام، والاعتمادية والتخلي عن حقوقه. لا عيب في الضعف باعتباره مشروع القوة القادمة، لكن العيب في الاستضعاف .

لقد فرَّق القرآن الكريم بشكل حاسم بين الضعف والاستضعاف. احترم الضعف وغمر أصحابه بالرحمة (والعفو يُريد الله أن يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وخلق الإنسان ضعيفا) (الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا) لكنه نبه إلى خطورة ومسئولية المستضعفين، وأنهم ظالمو أنفسهم (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا) -ومع الاختلاف حول معنى (أرض الله) ومعنى (الهجرة) فإن الآية الكريمة صريحة في التنبيه على رفض التسليم، من حيث أن قبول الظلم هو إسهام في تحقيقه وتماديه .

الخطر:

الخطر الحقيقي - هو في التوقف عند مرحلة الاستبداد بالفعل - وليس فقط بدء الرأي. يتم ذلك ليس فقط من خلال غطرسة المستبد المتزايدة، ولكن أيضا باستمرار المستضعف في الاستسلام الفعلي، حتى لو جَازَ بالشكوى. إن آلية الاستبداد وآلية الاستضعاف تغذى بعضها بعضا .

يبدأ المستبد باختبار مجال سلطته بقرون استشعار ترصد

نوع تلقى استبداده، فإذا وجد تراجعاً تقدم، ثم يتواصل تمادى الاستبداد وانتشاره مع تمادى الاستضعاف والاستسلام والتراجع، وهنا يصل المستبد إلى الخدعة الكبرى، فبدلاً من أن ينتبه إلى الخطر الذى يحيق به قبل ضحاياه، إذا به يندفع فيتصور أن هذا النجاح الزائف هو نتيجة صفاته المتفردة، فهو يستشعر آنذاك فى نفسه قوة غير حقيقية، ويغيب عنه أنها ليست سوى محصلة عماء الذى تضاعف مع تهاوى المقاومة التى كان يمكن أن تفيقه .

مسلسل التمادى:

تقول الآية الكريمة فى فرعون موسى: (فاستخف قوموه فأطاعوه)، يصلنى من هذه الآية أيضاً صحة عكس الاتجاه، بمعنى يفيد أن القوم حين أطاعوا الفرعون، استخفهم، ثم إنه استخفهم أكثر فأطاعوه أكثر. هكذا نفهم كم أن التمادى المعلق الدائرة المتفاقم التصعيد، هو سر دوامية الاستبداد وتعظيم مضاعفاته .

إن غياب المقاومة الحقيقية بكل صورها، من أول فاعلية أحزاب المعارضة التى لا بد وأن تعيد (أو تهدد) بتداول السلطة، حتى ضغط الرأى العام بكل الصور المشروعة، والمهددة باختراق الشرعية، غياب كل ذلك هو الذى يشجع الحكام المستبدين على الاستخفاف بالمستضعفين، ومن ثم التهميش، حتى الإلغاء تماماً .

تجليات الاستبداد:

ومن واقع ما سبق، بدءاً من أصل المضمون وقبولاً بمشروعية البدايات، وتحذيراً من التوقف والتمادى والتعميم، يمكن رصد فشرح عدد غير قليل من مجالات ومظاهر الاستبداد من أول إيجابياته النفسية فى تربية الأطفال حتى دوره السلبى فى تفرد شركات الدواء بزرع أفكار مطلقة شبه علمية فى عقول الأطباء (لاسيما صغارهم)، مروراً باستبداد بعض المناهج العلمية - دون سواها - لاحتكار تعريف ما هو علم، انتهاءً باستبداد القوة العالمية الجديدة لاحتكار الحرية تحت اسم الديمقراطية، واحتكار الحضارة تحت اسم التقدم، واحتكار أمل الوجود البشرى فى التطور تحت مسميات مثل مجتمعات الوفرة والرفاهية .

الاستبداد فى الحب يقول عمر بن أبى ربيعة وهو ينشد :

ليت هذا أنجزتنا ما تعدُّ وشفيت أنفسنا مما تجدُّ

واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

هل كان عمر بن أبى ربيعة يمزح أو يناور وهو يتمنى على هند أن تستبد به ولو مرة واحدة، أم أنه كان ينبهنا إلى عمق هذه الحاجة ومشروعيتها وهو يعلنها بلسان رجل خبير؟

ثانيًا: إن ظهور، وقبول أى منهما يتوقف على المرحلة، التي تظهر الظاهرة فيها، ثم على توظيف أى منهما لغرض بذاته، في طور بذاته، من أطوار الوجود والنماء .

ثالثًا: إن الاستبداد (بالمعنى الذى ورد فى المقال كله) ضرورة مبدئية مرحلية، لكن التمداد فيه فعل شمولى جامد، يحقق عكس ما تعد به بداياته .

رابعاً: إن (الاستضعاف) حق مرحلى مشروع، لكن التوقف عنده هو ظلم المستضعف لنفسه، بل وللمستبد به، لأنه يوقف الحركة للآثنين معًا .

خامسًا: إنه بتبادل الأدوار، من خلال الإيقاع الخيوى للأفراد، ومن خلال تداول السلطة للجماعات، ومن خلال دورات الحضارة للأمم، بهذا التبادل تطرد حركة جدلية تسمح باستيعاب هذه الحاجات الأساسية لتتخلق منها حيوية نابضة واعدة باطراد التطور دون اختزال أو استقطاب.